جبل بعدان
حارسُ مدينة إب الذي لا يمل!

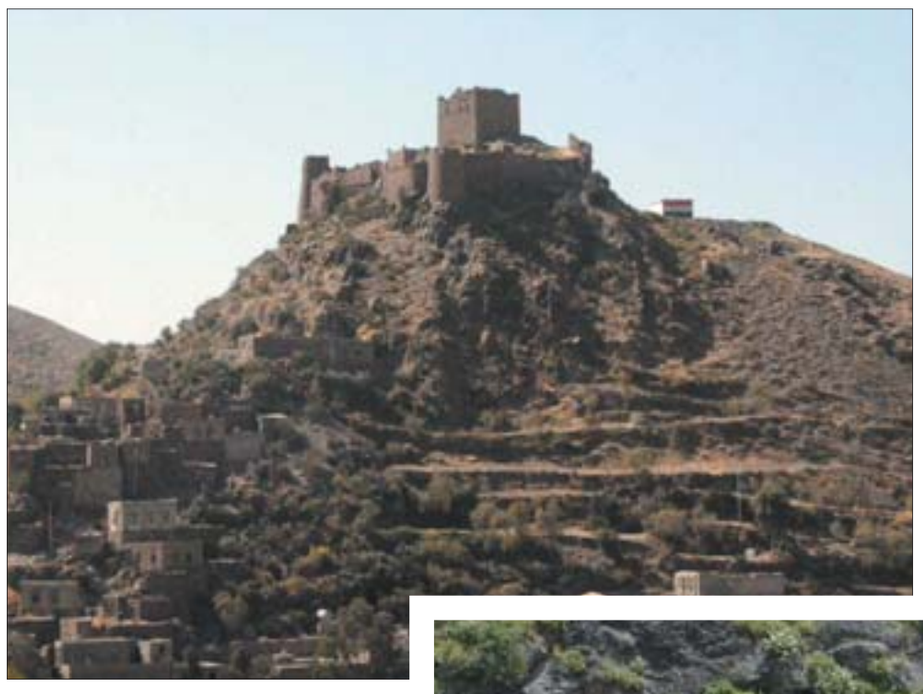

لا يكاد زائر يزور محافظة إب الخضراء، إلا وعرّج على شلالات المشنّة التي تحاذي مركز محافظة إب من جهة الشرق، وتطل عليها مباشرة من خلال جبل ريمان الذي تتدفق تلك الشلالات من أحضانه لتشكل منظراً طبيعياً بديعاً قلّ أن تجد له مثيلاً في الكثير من مناطق اليمن، فضلاً عن أن جبل بعدان كما اصطلح على تسميته والذي هو في الأصل جبل ريمان يشتهر بخصوبة تربته التي تساعد على نمو المحاصيل الزراعية وتسمح للحشائش الفريدة والجميلة التي تزيّن هذا الجبل الفتّان بالنمو في بقية المساحات التي لا يتم استزراعها.

فايز محيي الدين البخاري

حين يصل المرء إلى أعلى جبل بعدان يدهشه المنظر البديع الذي يتراءى له على مرمى البصر، فهو يستطيع رؤية مدينة جبلة التاريخية بكل وضوح، إضافة إلى رؤية مدينة إب بأكملها، حيث وموقع جبل ريمان يسمح برؤيتها ورؤية كل المناطق التي تحيط بها من جهة الغرب وجهة الجنوب وجهة الشمال، وهو بحق يعتبر الحارس الأمين لمدينة إب الساحرة.

والغريب في الأمر أن الغالبية العظمى من الناس تطلق عليه اسم جبل بعدان، وهذا يعود لوقوعه ضمن النطاق الجغرافي لمديرية بعدان، وإن كان بعض أجزائه في عزلة المويه والمقاطن تتبع مديرية ريف إب، لكنه مجازاً من بعدان، ولهذا فالأكثرية ممن ليسوا من المنطقة يسمونه جبل بعدان.

وقديماً في العصر الجاهلي أيام حكم الملك الحميري الحارث ذو الرائش الذي كان من مقراته حصن إرياب المطل على جبل سمارة فوق منطقة حلَيل بالضبط وحصن ريمان من بعدان قال فيه أعشى همدان:

بريمان أو بعدان أو رأس سلية
سفاءٌ لمن يشكو السمائم بارد
وبالسفح من إرياب لو بت ليلة
لجاءك مثلوجٌ من الماء جامدُ

عند زيارتي للجبل والطواف في أرجائه قيل لي أن تسميته تعود لأحد ملوك الدولة الحميرية الذي كان يسمى (ريمان) ومثله (الحَرَث) و(يريم) و(المنار) و(بعدان) من الأسماء المنتشرة في المناطق الوسطى التي تتبع محافظة إب وكانت يوماً ما مقراً للعديد من الملوك الحميريين الذين كانوا يتخذون لهم أكثر من مكان للاستقرار فيه واللجوء إليه وقت الشدائد، ودائما ما تكون مناطق مرتفعة وحصينة، وجبل ريمان من أكثر المناطق تحصينا طبيعياً.

مكان تاريخي

وبالعودة لكتب التاريخ نجدُ أن جبل ريمان يُعَدّ من أشهر جبال اليمن التي لعبت أدواراً تاريخية وكان لها باع طويل في التجارة والحضارة قديماً، بدليل ما أورده بن كثير في كتابه التاريخي الموسوعة (البداية والنهاية) حيث ذكر أن المطلب بن عبد مناف شقيق هاشم بن عبد مناف والد عبدالمطلب جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توفي في جبل ريمان من اليمن.

والمطلب بن عبد مناف هو الذي نُسبَ إليه عبدالمطلب الذي اسمه شيبة بن عبد مناف، وكان هاشم قد تزوج أم شيبة وهي من بني النجار سكان المدينة المنورة التي كانت تسمى قبل الإسلام (يثرب)، وفي إحدى سفرياته للتجارة فاجأه الموت وهو في مدينة غزة من أرض فلسطين والتي لا تزال تحمل الاسم هذا إلى يومنا هذا، وإن كان قد فُصل عن الإضافة لهاشم كما كانت تسمى (غزّة هاشم).

حين توفي هاشم عَهدَ برعاية شيبة لأخيه المطّلب الذي أخذه بعد بلوغه إلى مكة، وأقبل عليه وهو مردف لشيبة خلفه، وحين رآه بعض الغلمان ظنوه عبداً جديداً اشتراه المطلب فتصايحوا: عبدالمطلب عبدالمطلب ..والمطلب يزجرهم ويقول: ويحكم هذا ابن أخي هاشم، إنه شيبة الحمد، وسمي بذلك لشعرة بيضاء ظهرت عليه منذ الولادة، لكن سكان مكة شاع فيهم اسم عبدالمطلب فيما بعد، كعادة العرب حين تطلق لقباً على شخص إما من باب الدعابة أو الاستملاح وأحياناً السخرية ليصبح فيما بعد شائعاً كاسم لشخص أو قبيلة، والشواهد على ذلك كثيرة إلى يومنا هذا.

حصون منيعة

المهم في قصتنا هذه أن جبل ريمان في بعدان كان من الطرق التجارية المهمة قبل الإسلام، بدليل وفاة المطلب بن عبد مناف فيه، وقد مات غريباً عن موطنه مكة وأهله مثلما مات أخوه هاشم بعيداً عن أهله في غزة..ولا تزال هناك العديد من البصمات التاريخية المنتشرة في ثنايا جبل ريمان، والتي تؤكد في مجملها على الدور التاريخي الذي لعبته المنطقة برمّتها على مر العصور، وهو ما يحتاج اليوم إلى بعض الشعور بالمسئولية من قبل الجهات المعنية بالسياحة والآثار لتقوم بدورها وكشف المطمور من الآثار التي تنضح بها بلادنا بشكل عام وجبل ريمان بشكلٍ خاص، فالمنطقة شهدت على مر التاريخ أحداثاً جساماً تركت بصماتها في كل شبر من هذه الأرض الطاهرة، وكانت حصونها التاريخية كحصن حبّ وحصن نُعْم وحصن المنار وحصن العطاب وحصن رُقَب وقناصيع دلال وغيرها من الحصون والقلاع المنتشرة في بعدان وريمان أهدافاً استراتيجية للعديد من الدول التي حكمت اليمن، وخاصة زمن الصراع اليمني العثماني الذي كان يتسابق فيه الجانبان على السيطرة على مثل هذه الحصون المنيعة، الأمر الذي جعل من بعدان منطقة هامة قصدتها كل الدول وآلت إليها الكثير من أمور الرياسة، ويكفي أنها كانت المكان الذي التجأ إليه الأمير علي بن الإمام شرف الدين حين فرّ من مواجهة الأتراك إلى بعدان معتصماً بحصنها الشهير حصن حب، ولكن بالخديعة تم استدراجه والقضاء عليه بواسطة السم داخل الحصن الذي دُفنَ فيه قديماً القيْلُ اليمني الحميري يريم ذو رعين.

وجهة سياحية

ريمان لايزال حتى اليوم يحتفظ بالعديد من الآثار كما يحتفظ بالكثير من العادات والتقاليد العريقة ويمتلك من مقومات الجمال الطبيعي الرباني مايؤهله لأن يكون في مقدمة أماكن الجذب السياحي في بلادنا، فقط يحتاج من يعمل له بإخلاص من أبنائه المنتخبين في المجالس المحلية والبرلمان والشخصيات الاجتماعية ذات التأثير.

جبل ريمان لايزال قبلة لكل من يزور إب أو مديرية بعدان، ولا يزال يخبئ في طياته الكثير من الأسرار التاريخية التي تدل عليه الشواهد المنتشرة في أرجائه، ونتمنى أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه جبل ريمان وجهة سياحية من الدرجة الأولى على مستوى ليس اليمن فحسب بل والجزيرة العربية بأكملها، لأن المقومات السياحية الطبيعية التي يمتلكها لايمتلكها أي موقع سياحي آخر في اليمن، فهو في المنطقة الوسطى التي تمثل قلب اليمن، ومناخه معتدل على مر العام، وأرضه خصبة لدرجة أن هناك أشجار وحشائش تنمو على بعض الصخور.

نريد على الأقل من الجهات المعنية أن يحظى جبل ريمان بما حظي به جبل صبر في مدينة تعز من رصف وسفلتة وبناء جدران ومصارف للسيول لتضفي على الجبل رونقاً بديعاً وتحافظ على تربته من الانجراف بسبب الأمطار الكثيفة التي يمنّ الله بها دائماً على هذا الجبل الخصب.

«زبيد تستصرخ»

أجتر مرارة ألمي، وأضع يدي على قلبي، وأتجرع معك كأس الوجع قطرة قطرة، أعيش لحظات خوفي عليك ثانية.. ثانية، بإحساس موجع بالقلق لم أعش مثله من قبل.
تتبدين لي في أحلامي حزينة دامية القلب، من القرارات الرسمية، التي صدرت بشأنك والتي - بعد استبشارك بها - تتمنين لو أنها ما صدرت عن أعلى قمة في الدولة، لأن عجز الدولة المخجل عن تطبيق قوانينها،

أمة الرزاق جحاف

كشف لك ولنا مدى ما تعانيه من ضعف وعجز، ومدى اللامبالاة التي تتصرف بها الحكومة ورئيسها تجاه الثقافة والتاريخ والهوية، بدليل أن حمى المخالفات ما اشتد ساعدها إلا بعد اجتماع مجلس الوزراء- على مقربة منك في مدينة الحديدة- ستظلين تحلمين بالإنقاذ وكنت ستأملين أن المانع من إنقاذك ليس إلا جهل الدولة بما تعانينه، على الأقل من باب مواساتك لنفسك، ولكن ما أوجع الحقيقة التي اتضحت صورتها (لأن ظلم ذوي القربى أشد مرارة).

وفي صحوي تبدين لي كامرأة حائرة، تواجه وحيدة ظلم المجتمع، وتبحث عن منقذ يمد لها يد العون، وقد بدأت لحظات العد التنازلي لإعلان خروجك من قائمة التراث العالمي، التي تربعت فيها فخورة بنفسك، مزهوة بتاريخك، إلى جانب أخواتك من المدن العالمية.

ترى يا زبيد كيف ستتقبل فاس المغربية، ودمشق السورية، وتلمسان الجزائرية، خروجك من بينهن هذا الخروج المخزي والمخجل؟

هل سيشعرن بالإشفاق؟ أم سيشعرن بالخوف من مصير مماثل؟

لكن لا يا زبيد لا أعتقد أنهن سيتعرضن لما تعرضت له، لأن الأهل هناك يملكون من وعي الثقافة ما يجعلهم يحافظون على بقائهن في قائمة التراث كما يحافظون على بؤبؤ العين، ليس فقط لجمالهن أو لعبق التاريخ الذي يتضوع من أزقتهن، وإنما لأنهن يشكلن مصدراً مهماً من مصادر الدخل القومي ومنبعاً تنمويا لا ينضب ومجالا للاستثمار الثقافي خيرا من مليون بئر نفطية، ولنا في تجربة دمشق مع (باب الحارة) مثال واضح من خلاله عرفنا كيف استثمر الدمشقيون تراثهم الشعبي وقدموه بكل تفاصيله في مسلسل يتحدث عن الحياة في حارة شعبية بكل ما تحتويه من عادات وتقاليد وأزياء وفنون شعبية جعلت الأسرة العربية تتسمر أمام شاشات التلفزيون طوال شهر رمضان الكريم لخمس سنوات ؟

وكيف ستتقبل صنعاء مغادرتك لقائمة التراث التي تربعت فيها بعدها ؟ هل ستفتقد غيابك ؟ أما سيشغلها عن ذلك الخوف الرهيب من مصير مماثل ؟ ومع خوفنا عليها لكنها على الأقل أحسن حظا منك، فقد تكاتفت الجهود وتشابكت أيدي سبأ بين الأخ عبدالقادر هلال أمين العاصمة والسلطة المحلية والدكتور ناجي ثوابه رئيس الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية هبوا تلبية للواجب ومستجيبين لصوت استغاثتها يعاونهم أبناء المدينة التاريخية المدركون لأهميتها وهاهم يبذلون جل جهودهم ويعملون ليل نهار من أجل صونك وحمايتك والمحافظة على كل عبق التاريخ الذي يتضوع من أحيائك العتيقة أمانة ينقلونها إلى الأجيال القادمة.

وأنت يا زبيد ترى هل سيستجيب المسؤولون عنك لصوت العقل والحكمة لإنقاذك ويفيق أبناؤك من سباتهم العميق قبل فوات الأوان أم قد أصابتهم الذبابة الرملية بما يسمى بمرض السبات الطويل.

أم أنك يا زبيد سوف تتمنين لو أن لك ابناء كأبناء شبام حضرموت النجباء الذين هم بأنفسهم حريصون على المحافظة على الهوية الثقافية المميزة لمدينتهم.

آه يا زبيد.. ليتني أملك أن أوقف عقارب الزمن، وأحول دون تدفق ثوانيه، باتجاه العد التنازلي، الذي بدأت عقارب زمنه، تضعنا أمام كارثة ثقافية حضارية، لا أدري بأي قوة نفسية ومعنوية سنواجهها، ولا ما هي الأعذار والمبررات التي سنقولها لأحفادنا وللأجيال القادمة.

ليتني أمتلك وسيلة سحرية، أتمكن بواسطتها من انتشالك من بين مخالب التدمير، ومعاول الجهل لأخفيك عنهم بين اضلعي.

ليتني - يا جوهرة التاريخ - أستطيع أن أحتضن كل ياجورة هوت من مكانها، بأيدي المخربين، فأداوي جراحها، وأخفف ألمها، وأعيدها معززة مصونة إلى مكانها بين أخواتها - هناك - حيث وضعتها - ذات يوم - في ذات زمن - يد أحد الفنانين من أجدادنا المعماريين العظام، الذين لا يزال طينك يحمل عبق عرقهم، وزخارفك تحمل أثر بصماتهم، محفورة في قضاضها ونورتها.

حقيقة الحزن يا زبيد، أعيشها كلما فكرت في مقدار الألم الذي تشعرين به، وأنت تتعرضين لعملية تغريب قسرية، تغترب بواجهاتك الجميلة، عن الهوية المتميزة التي حملتها بيوتك منذ مئات السنين، وجعلتك بجمالك الفريد تبهرين كل العالم وتفتنين كل من يزورك ما عدا أبنائك !!!

أليس هذا غريبا ؟ أسمعك تهمسين متسائلةً بألم، وأنت تأنين وتنزفين تحت معاولهم، التي تمزق خصوصيتك وتهتك حرمة جسدك أليس هذا غريبا ؟!.

نعم يا مدينة الحضارة .. إنه أمر محير لي ولك ولكل محبيك، كلنا نعجز عن فهم ما يحدث ... كيف يكون أبناؤك يا زبيد - من أعلى سلطة في المجلس المحلي، إلى ممثل أعلى سلطة للدولة في المحافظة، إلى مواطنيك من رجال ونساء هم سبب مأساتك؟!

ألا يوجد بينهم رجل رشيد؟ كيف يعملون بإصرار عجيب على طمس هوية مدينتهم، في حملة اغتيال حضاري لم يسبق لها مثيل، وكأنهم يريدون أن يتخلصوا - بأقصى سرعة - من عبء أمانة الإرث التاريخي والحضاري الذي يحملونه على أعناقهم، وكأنهم يخجلون من انتمائهم إليه.

أيعقل يا زبيد (العلم والثقافة) أن يتسابق أبناؤك فيما بينهم أيهم يسبق غيره في وضع معوله على جسدك ليؤكدوا للمجتمع الدولي أن الجيل الجديد من أبنائك لا علاقة لهم بالعلم والثقافة ولا بالشعر والأدب.

الجيل الجديد من أبنائك - للأسف - تخلوا عن كل شيء من أجل مشاريع سياسية ضيقة مشخصنة تحقق مكاسب شخصية محدودة على حساب تاريخ وطن وهوية ثقافة وطنية رافضين أي حلول وطنية أو دولية تستهدف إنقاذ المدينة، مصرين على تحويلها إلى مدينة اسمنتية ميتة فلا هي بإمكانها أن تصبح دبي التي وإن خنقت زائرها بأبراجها الإسمنتية، وناطحات السحاب العملاقة، إلا أنها تعوضه بما تحققه له من متعة التسوق وفائدة الصفقات التجارية.

ولا هي بإمكانها أن تكتسب خصوصية متميزة بديلة تعوضها عن ما فقدته..مؤلم أشد الألم، أن تغدو زبيد مجرد مدينة عادية بلا نكهة ولا هوية، لأنها بعد خروجها المخجل والمهين لكل اليمنيين حكومة وشعبا، من قائمة التراث ستغادر أيضا ذاكرة التاريخ بعد عقود طويلة من تربعها فيها، ولكن هي رغبة أبنائها، وتهاون المسئولين الجدد في الدولة المدنية الحديثة التي لا أدري كيف يسعون لتحقيقها وهم يهدرون أهم مقوماتها.. إذ كيف تبنى الدولة المدنية إذا لم تكن الثقافة أهم أسس بنائها ومع كل هذا الألم واليأس الذي تعيشينه استغرب يا زبيد أن يظل لديك الأمل وأنا أسمعك في كل ثانية تستصرخين الجهات المعنية وتستنجدين كما استنجدت امرأة عمورية بالمعتصم لإنقاذها من همجية أعداء الحضارة وتهيبين به أن يسرع في توجيه نداء عالمي ليصل نداءه عبر الأوتوموسفير إلى أقاصي الأرض فيأتي لنجدتك أقوام من خلف البحار البعيدة والموانئ النائية يأتون ملبين نداء الإستغاثة من تجمعهم بك رابطة الثقافة والإنسانية والتواصل الحضاري وستريهم قادمين مسرعين يقطعون المسافات الشاسعة يطوونها طي المسافات بين العين والأذن لنجدتك وإنقاذك وإنقاذ أخواتك مدن الكنوز اليمنية.